الأدب العربي في حِقبة ما بعد الكلاسيكيّة:
المَعالم والمُقدّمات

Arab Literature in the Post-Classical Period:
Parameters and Preliminaries

عذبة خالد المسلماني[1]، هيثم سرحان[2]

Adba Khaled ALMSELMANI, Haitehm SARHEN

[1] جامعة قطر، (قطر)، athmslmani@gmail.com

[2] جامعة قطر، (قطر)، haithamsarhan@qu.edu.qa

تاريخ الإرسال: 2020/02/13 **تاريخ المراجعة**: 2020/03/10 **تاريخ النشر**: 2020/12/28

ملخص:

يتضمّن هذا المقال ترجمةَ المدخل الذي ورد في مجلّد: "تاريخ كامبريدج للأدب العربي" التي حرّرها روجر ألن ROGER ALLEN ودونالد سيدني ريتشاردز DONALD SIDNEY RICHARDS، وشارك في تأليفه نخبةٌ من المشتغلين بالعربية وآدابها وحضارتها. وقد ساهم روجر ألن بكتابة مدخل مستفيضٍ لهذا المجلّد بعنوان: "**الأدب العربي في حِقبة ما بعد الكلاسيكيّة: المَعالم والمُقدّمات**"، وهو مَدْخلٌ ثريٌّ عميقٌ يَعْرِضُ مجموعةً من المفاهيم والتصوّرات والرؤى النقدية والفكرية المُتّصلة بالإشكاليات النظرية التي تُحيطُ به حِقَبٌ طويلةٌ ومُعقّدةٌ أدبيًّا وسياسيًّا وفكريًّا، فضلاً عن تلك الصراعات والمواجهات التي وقعت في البلاد العربية على مدار ستة قرون على وجه التقريب بدأت بغزو المغول بقيادة هولاكو خان HULAGU KHAN بغداد سنة 1258م، وانتهت بحملة نابليون بونابرت NAPOLEON BONAPARTE على مصر سنة 1798–1801 م، وظلّت آثارها ممتدة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى 1918م، وهو التاريخ الذي عُدّ فاتحةَ الأدب العربي الحديث.

الكلمات المفتاحية: الأدب العربي، الأدب العربي ما بعد الكلاسيكي، القرن التاسع عشر، الأدب الحديث.

Abstract:

This essay is a translation of Roger Allen's introduction to the volume *Arabic Literature in the Post-Classical Period*, which was published by Cambridge University Press as part of its "History of Arabic Literature." The volume, which was edited by Allen himself along with Donald Sidney Richards, includes contributions by prominent scholars of the field. Allen's introduction provides key concepts, visions, and reflections about the literary, political, and intellectual orientations and complications of one certain period of Arabic literature. Entitled, "The Post-Classical Period: Parameters and Preliminaries," the introduction focuses on the production of Arabic literature from the Fall of Baghdad to the Mongol in 1258 until Napoleon Bonaparte's campaign in Egypt in 1798-1801, which arguably ushered in the era of modern Arabic literature.

Keywords: Arabic Literature; Classical literature; Post-Classical; 19th Century; Acculturation; Modern Literature

المؤلّف المرسِل: عذبة خالد المسلماني، **الإيميل**: athmslmani@gmail.com

1. مقدمة التّرجمة:

يتضمّن هذه المقال ترجمةَ المدخل الذي ورد في مجلّد: تاريخ كامبريدج للأدب العربي التي حرّرها روجر ألن Roger Allen ودونالد سيدني ريتشاردز Donald Sidney Richards، وشارك في تأليفه نخبةٌ من المشتغلين بالعربية وآدابها وحضارتها. وقد ساهم روجر ألن بكتابة مدخل مستفيضٍ لهذا المجلّد بعنوان: "**الأدب العربي في حِقبة ما بعد الكلاسيكيّة: المَعالم والمُقدّمات**"، وهو مَدْخلٌ ثريٌّ عميقٌ يَعْرِضُ مجموعةً من المفاهيم والتصوّرات والرؤى النقدية والفكرية المُتّصلة بالإشكاليات النظرية التي تُحيطُ به حِقَبٌ طويلةٌ ومُعقّدةٌ أدبيًّا وسياسيًّا وفكريًّا، فضلاً عن تلك الصراعات والمواجهات التي وقعت في البلاد العربية على مدار ستة قرون على وجه التقريب بدأت بغزو المغول بقيادة هولاكو خان Hulagu Khan بغداد سنة 1258م، وانتهت بحملة نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte على مصر سنة 1798 – 1801 م، وظلّت آثارها ممتدة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى 1918م، وهو التاريخ الذي عُدّ فاتحةَ الأدب العربي الحديث.

2. قصّة مجلّد "تاريخ كامبريدج للأدب العربي":

في عام 1988م تشاورت مطبعة جامعة كامبريدج مع روجر ألن حول مستقبل سلسلة المجلدات المعروفة باسم تاريخ كامبريدج للأدب العربي، ونتيجة المناقشات أصبح روجر ألن رئيس تحرير المجلد الأخير في تلك السلسلة (حِقبة ما بعد الكلاسيكية) 2006م، وهو مجلدٌ يدرس الثقافة العربية والإنتاج الأدبي العربي بين حوالي 1150م و1850م وهي حقبة طويلة من الزمن لا يُعرف عنها سوى القليل، وقد استغرق العمل على هذا المجلد خمس سنوات.

تكمن أهمية هذا المجلد في أنه يُسلّط الضوء على التراث الأدبي العربي في حقبة ممتدة تبدأ من القرن الثاني عشر حتى بداية القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من أنَّ هذه الحِقْبة أُنتجت فيها العديد من الأعمال الأدبية إلا أنه لم يُكتب حولها إلا القليل من الدراسات العامة، ولقد قام روجر ألن من جامعة بنسلفانيا ودونالد سيدني ريتشاردز من جامعة أوكسفورد بالاستعانة بمجموعة متميزة من الباحثين في مجال الأدب العربي لدراسة هذه الحِقْبة. ويُعدُّ هذا المجلد فريدًا من نوعه في اللغة الإنجليزية لأنه يغطي حقبة ما بعد الكلاسيكية في الأدب العربي، كما يعد موردًا نفيسًا للطلاب والدارسين في هذا الحقل، وقد صدر المجلّد سنة 2006 في نيويورك وكامبردج عن منشورات جامعة كامبردج.

وينقسم المجلد إلى مدخل وستة أجزاء أساسيّة؛ ثلاثةٍ منها تغطي التقاليد الشعرية والنثرية بشكل منفصل في سياقاتهما (النخبوية) و(الشعبية)، وتناول ثلاثة أجزاء مخصّصان للدراما والمعايير النقدية الأدبية:

المدخل: حِقْبة ما بعد الكلاسيكية: المعالم والمُقدّمات، روجر ألن

الجزء الأول / شعر النخبة:

1. الشعر العربي في حقبة ما بعد الكلاسيكية، سلمى خضرا الجيوسي
2. الإبداع الشعري من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن، عشر محمد لطفي اليوسفي
3. الشعر الديني العربي، 1200م-1800م، توماس هومرن Th. Emil Homerin

الجزء الثاني/ نثر النخبة:

1. النثر الجميل-المحض- في حِقبة ما قبل الحداثة، محسن جاسم الموسوي
2. المقالة والمناظرة (الرسالة والمناظرة)، جاكو هامين أنتيلا Jaakko Hämeen-Anttila
3. المقامة، ديفن ستيورات، Devin Stewart
4. المؤرخون وتاريخ المماليك، روبرت إرون Robert Irwin
5. التأريخ في اللغة العربية خلال الحِقْبة العثمانية، مايكل ونتر Michael Winter

الجزء الثالث/ الشعر الشعبي:

1. الشعر الشعبي في حقبة ما بعد الكلاسيكية، 1150م-1850م، مارغريت لاركن Margaret Larkin

الجزء الرابع/ النثر الشعبي:

1. النثر الشعبي في حقبة ما بعد الكلاسيكية، دوايت رينولدز Dwight F. Reynolds
2. ألف ليلة وليلة: تاريخ من النص، واستقباله دوايت رينولدز Dwight F. Reynolds
3. سيرة عنتر بن شداد ريميك كروك Remke Kruk
4. سيرة بني هلال، دوايت رينولدز Dwight F. Reynolds
5. سير أخرى وسرديات شعبية، بيتر هيث Peter Heath
6. سرديات دينية شعبية، كمال عبد الملك

الجزء الخامس/ الدراما:

1. الدراما في حقبة ما بعد الكلاسيكية: دراسة استطلاعيّة، روزيلا تشيكاتو Rosella Ceccato
2. الدراما في حقبة ما قبل الحداثة، فيليب سادجروف Philip Sadgrove.

الجزء السادس/ النقد:

1. النقد في حقبة ما بعد الكلاسيكية: دراسة استطلاعيّة، ويليام سميث William Smyth.

3. التعريف بكاتب المدخل:

المُسْتَعربُ روجر ألن Roger Allen باحث إنجليزي الأصل متخصص في دراسة الأدب العربي، حصل على درجة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة أوكسفورد عام (1968م)، وهو أوّل طالب يحصل على درجة الدكتوراه في هذا المجال تحت إشراف الدكتور محمد مصطفى بدوي. وكان موضوع أطروحته ترجمة لرواية محمد المويلحي الشهيرة "حديث عيسى بن هشام"، والتي تم نشرها في ما بعد في كتاب بعنوان "حقبة زمنية" (1974م/1992م) بناءً على طلب من البروفيسور جابر عصفور المدير العام للمجلس الأعلى للثقافة في مصر. كما قام بإعداد نسخة من الأعمال الكاملة لمحمد المويلحي (2002م) ووالده إبراهيم المويلحي (2007م).

في عام (1968م) انتقل من بريستول في إنجلترا إلى فيلادلفيا في الولايات المتحدة الأمريكية لتولي منصب أكاديمي في جامعة بنسلفانيا حيث قام بتدريس أجيالٍ من الطلاب والباحثين العرب ويُعدُّ هذا المنصب أقدم منصب بروفيسور في اللغة العربية –كلغة منفصلة– في الولايات المتحدة الأمريكية إذْ يعود تاريخه إلى عام (1788م)، كما شارك في كتابة كتاب مدرسي باللغة العربية مع عادل علوش بعنوان "دعونا نتعلم اللغة العربية". وبعد مضي 43 عامًا من العمل في جامعة بنسلفانيا تقاعد في عام (2011م) من منصبه كأستاذ للفكر الاجتماعي والأخلاق المقارنة في كلية الآداب والعلوم.

شغل روجر ألن منصب أستاذ اللغة العربية والأدب المقارن في قسم اللغات والحضارات في الشرق الأدنى على مدى السنوات الست الماضية، وعُيّن رئيسًا في القسم نفسه منذ عام (2005م حتى 2011م). وقد انْتُخِبَ رئيسًا لجمعية دراسات الشرق الأوسط المعروفة باسم (MESA)، ثم شغل منصب رئيس الجمعية في عام (2009م–2010م).

عمل روجر ألن محررًا في العديد من المجلات منها: مجلة الأدب العربي Journal of Arabic Literature، ومجلة أدب الشرق والغرب Literature East and West، ومجلة العربية. ويعمل حاليًا مُحررًا تنفيذيًّا مع البروفيسور فان جيلدر Van Gelder من جامعة أوكسفورد والبروفيسور مايكل بيرد Michael Beard من جامعة نورث داكوتا في الآداب الشرق أوسطية. بالإضافة إلى ذلك قام روجر ألن بترجمة العديد من الأعمال الأدبية العربية المعاصرة إلى اللغة الإنجليزية، وكانت ترجماته لأعمال نجيب محفوظ عاملًا مهمًّا في جذب أنظار الغرب إلى الكاتب المصري، كما مارس دورًا حاسمًا في عملية الترشيح التي أدت إلى فوزه محفوظ بجائزة نوبل في الأدب عام (1988م). ومن ترجماته:

- "دنيا الله" نجيب محفوظ، بالاشتراك مع عاكف أبادير (1973م)
- "السمان والخريف" نجيب محفوظ (1985م)
- "مرايا" نجيب محفوظ (1977م، 1999م)

- "مقهى الكرنك" نجيب محفوظ (2007م)
- "خان الخليلي" نجيب محفوظ (2008م)
- "الباقي من الزمن ساعة" نجيب محفوظ (2010م)
- "السفينة" جبرا إبراهيم جبرا، بالاشتراك مع عدنان حيدر
- "البحث عن وليد مسعود" جبرا إبراهيم جبرا، بالاشتراك مع عدنان حيدر
- "العتب على النظر" يوسف إدريس
- "نهايات" عبد الرحمن منيف
- "دنيا زاد" مي التلمساني، وهي مدرجة للحصول على جائزة أفضل رواية مترجمة لعام (2000م)
- "العلاَّمة" بنسالم حميش (2004م)
- "الثيوقراطي"[1] بنسالم حميش (2005م)
- "جارات أبي موسى" أحمد التوفيق (2006م)
- "الجراد والطيور" حنان الشيخ (2009م)

شارك بين عامي 2008م و2009م طلابه مع محرري المجلات الثلاث المرموقة آداب الشرق الأوسط Middle Eastern Literatures والعربية والأدب العربي Journal of Arabic Literature، في نشر سلسلة من الدراسات الأدبية والترجمات التي قام بها.

وأحد أهم مؤلفاته الرئيسية "الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية"[2]، وقد صدرت الطبعة الأولى للكتاب عام (1982م)، وقد كان الكتاب في البداية شكل سلسلة من المحاضرات في جامعة مانشستر. كما قام بكتابة كتاب عن التراث الأدبي العربي بعنوان "التراث الأدبي العربي" (1998م)، ثم صدرت عن هذا الكتاب نسخة أخرى تحت عنوان "مقدمة في الأدب العربي" وهي النسخة التي ترجمت إلى اللغة العربية ونشرت في القاهرة عام (2003م)[3].

وبالإضافة إلى هذه الكتب قام بإعداد عدد كبير من المقالات الفردية حول القصة العربية المعاصرة، والروايات، والقصص القصيرة نشرت في عدد من المجلات باللغتين العربية والإنجليزية. ولقد حافظ روجر ألن على اتصالات وثيقة مع أدباء العالم العربي؛ إذ كان يتردد على قطر فشارك في أحد مؤتمرات منتدى العلاقات العربية والدولية، وعلى القاهرة، وساهم في أنشطة جامعة تونس في منوبة وعددًا من الجامعات المغربية بما في ذلك محمد الخامس في الرباط وفاس ووجدة والدار البيضاء.

1 ترجم روجر ألن العنوان من "مجنون الحُكْم"، إلى الثيوقراطي.

2 ترجمته إلى العربية: حصة منيف، المشروع القومي للترجمة، القاهرة 1997م.

3 ترجمه إلى العربية: رمضان بسطاويسي ومجدي أحمد توفيق وفاطمة قنديل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2003م.

الأدب العربي في حقبة ما بعد الكلاسيكيّة

المعالم والمُقدّمات

روجر ألن

المدخل:

قبل الشروع في مناقشة الأساس المنطقي لهذا المجلد، أَقترِحُ الرجوع إلى بعض النتائج التي تترتب عليه ولم تنتج –حتمًا– عن موضوع هذا المجلد فحسب، بل من المبادئ التي اعتُمِدَت في إعداده كجزء من سلسة الأعمال المُخصصة لدراسة التراث الأدبي العربي. ومن الجدير بالذكر أنَّ مصطلح (ما بعد الكلاسيكية) لم يُستعمل في كثير من الأحيان من أجل تحديد حقبة معينة من مراحل تطور التراث الأدبي العربي، لذلك اسْتُعمِلَ عنوانًا لهذا المجلد بشكل مختزل في حين كان من الممكن أنْ يطلق عليه "حقبة ما بعد الكلاسيكية وما قبل الحداثة". وبعبارة أخرى، فإنَّ هذا الجزء المركزي الكبير من تاريخ الإبداع الأدبي العربي يعاني من تحديد دقيق لكل إنتاج أدبي يأتي في منتصف المراحل الانتقالية من عمر التراث الأدبي العربي.

ونجد أنَّ تحديد المفاهيم مثل: –منتصف العمر، والشرق الأوسط، والعصور الوسطى– يتمّ من خلال الأخذ بما يكمن على جانبيها؛ وقد يقترح المرء كذلك أنّ كلَّ هذه المفاهيم وغيرها تفتقر إلى الدقة والتحديد فيما يتعلق بحدودها الزمنية. وعند هذه النقطة بالتحديد يجدر بنا الاعتراف بأنّ العنوان البديل الذي اقترحناه سابقًا لم يكن الأول فقد وجدتْ مؤلفات تحمل العنوان نفسه، فالعلماء الغربيون المتخصصون في التراث قد وسموا هذه الحِقْبة من تاريخ الأدب العربي بـ "مرحلة الانحطاط". وهو المصطلح الذي اتفق عليه الكتّاب العرب الذين كتبوا عن تلك الحقبة، حيث عمدوا عند ترجمته إلى البحث عن أقرب مرادف له في اللغة العربية حتى وصفوه بـ "عصر الانحطاط"[1].

ولا داعي للقول: إنَّ البحث في (الانحطاط) كموضوع للتحقيق النقدي يفتح لنا عددًا من مجالات البحث الرائعة، فمن خلال دراسة العديد من الثقافات العالمية، أنتجت هذه الدراسات رؤىً مهمة كشفت عن عمليات الإبداع

1 حدد روبرت برونستشفنق Robert Brunschving هذا التطور في المواقف الغربية إلى العالم الإسلامي إلى النصف الأخير من السابع عشر. انظر "مشكلة الانحطاط" في "الكلاسيكية والانحدار الثقافي، ص29–51، في المؤتمر الذي أقيم حول هذا المجلد، سأل المستشرق السويدي العظيم نيبرج Nyberg مجموعة من الأسئلة ذات الصلة بالموضوع: ما الانحطاط الثقافي؟ كيف يمكننا قياسه؟ هل هو بؤس المتلقين؟ أم انخفاض المستوى الاقتصادي؟ تردي الفنون؟ تقليد طرق الكتابة التي عفا عليها الزمن أم عدم وجود الدافعية الحقيقة، ومن ثَمَّ تضييق المجال على القوى الخلّاقة الأخرى؟ هل يوجد لدنيا أيُّ نوع من المعايير التي نقيس بها مثل هذه الأشياء؟ نحن الأوروبيين دائمًا ما تلاحقنا فكرة التطور هذه، فهل من المعقول أنَّ الثقافة الإسلامية يمكن أنْ تشابهها؟ (تمت ترجمتها عن الفرنسية، ص48).

الأدبي واستمرارية التراث. أما في حالة التراث العربي والإسلامي فيبدو أنّ تطبيق هذا النوع من الدراسة على جزء كبير من الإنتاج الثقافي للمنطقة أدى إلى إنشاء حلقة مفرغة؛ إذ تمَّ تحويل التقارب شبه الكامل بين الثقافات العالمية الأخرى والثقافة العربية إلى خلق معايير جمالية مختلفة جدًا وبطريقة غير علمية مما ترك في فهمنا فجوات كبيرة.

ومن الممكن توضيح هذه المعايير من خلال الاستشهاد ببعض الأعمال الأدبية التي تناولت الثقافة العربية والإسلامية من جوانب مختلفة، وعلى سبيل المثال: "لقد أُغلقت على العالم الإسلامي الأبواب منذ الحروب الصليبية، وأخذ المسلمون في علمهم يأكلون بعضهم بعضا، فليس إلا ترديد بعض الكتب الفقهية والنحوية والصرفية ونحوها. أما صناعتهم، فلا اختراع، ولا إتقان للقديم؛ وأما آلاتهم وفنونهم العسكرية، فهي على نمط الأقدمين...قد أمات نفسها توالي الاستبداد عليها؛ العلم فيها كتابٌ ديني شكلي يقرأ، أو جملة تعرب أو متن يحفظ، أو شرح على متن أو حاشية على شرح. أما علوم الدنيا فلا شيء منها إلّا حساب بسيط يستعان به على معرفة المواريث" (أمين، 1948، ص 7).

إنَّ كاتب الاقتباس السابق هو أحمد أمين أحد أبرز المثقفين المصريين في القرن العشرين، ومما لا شك فيه أنه ينتمي إلى جيل من الكتَّاب الذين وجدوا أنفسهم يخلطون المعضلات في عملية ترقيع جذرية تبعت استيراد الأفكار والقيم الغربية السريعَ وغير المدروس، ووطّنتها في البُلدان المُستَعمرَة في الشرق الأوسط. ومع ذلك، أود أنْ أوضح أنَّ هذه الملاحظات ما هي إلا مؤشر دقيق على المواقف المتبادلة بين علماء الغرب والشرق الأوسط على حد سواء في الحِقْبة التي يتناولها هذا المجلد.

في الأجزاء الآتية من المقال، سأقوم أولًا باستعراض أهم المشكلات المرتبطة بمحاولات تجميع مجلد مثل هذا، أو بشكل آخر مشكلات كتابة التاريخ الأدبي العام والتاريخ الأدبي العربي بشكل خاص. ثم سأعد النتائج التي توصلت إليها في القراءة بمثابة المبادئ المنظمة للمجلد، وأخيرًا سأناقش الأسباب وراء اختيار المحتوى.

التاريخ الأدبي: المناهج والقضايا

إنَّ دراسة التطورات التي مرّ بها أي موروث أدبي تنطوي بالضرورة على عملية اندماج بين مجالين من مجالات التخصصات العلمية وهما الأدب والتاريخ. ونجد ذلك في بعض الأمثلة من الدراسات التاريخية للتراث الأدبي في الشرق الأوسط؛ فهناك تشابه واضح في الطريقة التنظيمية والمناهج المستعملة في الدراسات التاريخية للتراث الأدبي في مناطق العالم الأخرى التي تميل في معظمها إلى دراسة التاريخ أكثر من الأدب نفسه.

ومن الأمثلة على هذه الأعمال الكلاسيكية كتاب "التاريخ الأدبي لبلاد فارس"[1] لإدوارد براون[2] Edward Browne (1902-24م) أو "تاريخ العرب الأدبي"[3] لرينولد نيكلسون[4] R.A. Nicholson (1907م)، فكلا الكتابين قد تبع المنهج الذي يضع التراث الأدبي في إطار تاريخي يركز في معظمه على الخلفاء والسلاطين وغيرها من أحداث التي ترتبط بقوى السلطة الحاكمة. وفي إطار كهذا نجد أنَّ الكاتب يضع الأدب بشكل مباشر ضمن محيطه التاريخي والاجتماعي ويوظّف النص الأدبي ليوضح من خلاله العلاقة بين الإنتاج الأدبي وسلطة النخبة الحاكمة.

لقد أدّى النقاش العلمي خلال القرن العشرين إلى العديد من التغييرات في مناهج دراسة كلٍّ من هذين التخصصين الرئيسيين (الأدب والتاريخ)، ولعل أكبر مثال على المحفزات التي أدت إلى مثل هذه التغييرات هو ظهور مصطلح (الثورة اللغوية) عند فيردناند دي سوسير Ferinand de Saussure (1913م) في كتابه "علم اللغة العام"[5]، وهو العمل الذي ساهم في العديد من التطورات الأخرى كان أبرزها التمييز الجذري بين مصطلح نظام اللغة والاستعمال الفعلي للغة من قِبل المتحدثين بها، مع التركيز على (الخطاب). بالإضافة إلى التقسيم الثنائي الذي لا يقل أهمية في مناهج دراسة الظواهر اللغوية بين القياس الآني والتاريخي[6] Diachronic and Synchronic. إلى جانب الدراسات التاريخية التي كانت تعتمد على التواريخ وفترات خلافة النخب الحاكمة منهجاً للبحث التاريخي.

أما في الوقت الراهن فقد أصبح المختصون في التاريخ أكثر رغبة في البحث عن مواضيع مختلفة للدراسة والنشر، مثل: فترات الكوارث، والأمراض، والفلاحون، والتمدن وتأثير عجلة التنمية. وفي هذا الإطار يكون الزمن دائمًا أو على الأقل ضمنيًا، ولكنه يمثل جزءًا مُهِّمًا من منهج التزامن الذي يشكل جوهر التركيز التنظيمي للدراسات التاريخية. أما في الدراسات الأدبية، فقد دعا النقاد الجدد إلى استبعاد جميع الاعتبارات الأخرى والتركيز على النص نفسه في دراسته وتفسيره، وهذا بدوره أدى إلى تهميش دور مؤلف العمل وإهمال شخصيته.

---

1 "A Literary History of Persia" ، إيبكس، الولايات المتحدة الأمريكية، 1997م. ترجمه أحمد كمال الدين وأمين الشواربي ومحمد منصور في ثلاثة أجزاء بعنوان "تاريخ الأدب في إيران"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م.

2 إدوارد براون (1862م-1962م) مستشرق إنجليزي. نال شهرة واسعة في الدراسات الشرقية وكان يجيد التحدث بالفارسية والعربية، ومن أهم آثاره "التاريخ الأدبي لبلاد فارس" و"الطب عند العرب"، كما قام بترجمة كتاب "لباب الألباب" للأديب الفارسي محمد عوفي.

3 "A Literary History of the Arabs"، كتاب باهفان Kitab Bahvan، دلهي. ترجمه صفاء خلوصي، مطبعة المعارف، بغداد، 1969م.

4 رينولد ألين نيكلسون (1868م-1945م) هو مستشرق إنجليزي. تخصص في التصوف والأدب الفارسي ويعتبر من أفضل المترجمين لأشعار جلال الدين الرومي. له مقالات كثيرة في دائرة معارف الدين والأخلاق ودائرة معارف الإسلام.

5 بالفرنسية: "Cours de linguistique générale". بالإنجليزية: "Course in General Lingustics". تمت ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية عدّة ترجمات منها: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، 1985م.

6 السانكروني والدياكروني، أو التعاقبي والتزامني. منهجا نظر مختلفان ومكملان في التحليلات اللسانية.

كما ركزت بعض الاتجاهات في النقد الأدبي في الآونة الأخيرة على العلاقة بين النص وعميلة القراءة (تلقي النص)، فنجد أنَّ كل هذه التغييرات جاءت نتيجة للتطورات التي طرأت على مناهج دراسة التاريخ والأدب، والبحث عن طبيعة أنواع الخطاب المختلفة وعن وظيفة السرد. عدا عن التحديات التي تواجه الحقائق ومصادرها التي ولَّدت بدورها فكرة مثيرة للاهتمام حيث أصبح يُنظر إلى التاريخ، والسيرة الذاتية، والقصة على إنها ممارسات متشابهة في تكوين النصوص السردية، على الرغم من بعض الاختلاف. ونسعى من خلال استعراض هذه الأمثلة إلى توضيح عمليات التغيير التي حدثت داخل التخصصات الإنسانية في القرن العشرين.

وهنا يجدر بنا توكيدُ أنّ الآراء العلمية التي تجري مناقشتها في هذا المقال لا تقوم على استبدال أحد المناهج على الآخر – ولو أنّ أكثر المنحازين إلى منهج معين قد يتمنَّى أنِّي فعلت ذلك– بل دراسة العملية التدريجية للتغيير والتكيف في تلك المناهج، ومن الواضح أنّ التطورات التي طرأت على مناهج دراسة التاريخ والأدب كان لها تأثير كبير على مناهج دراسة التاريخ الأدبي. وقد قامت جهودٌ استهدفت إجراء محاولات منهجية لجعل الدراسات في التخصصات الإنسانية أكثر علمية من خلال وضع نظرية أثارت جدلًا بين العلماء وهي نظرية وضعها الناقد الإيرلندي دينيس دونوغيو[1] Denis Donoghue وكان قد اقتبس عبارة "الأبجديات الشرسة"[2] من قصيدة للشاعر الأمريكي ولاس ستيفنز[3] Wallace Stevens للتعبير عن هذه التطورات في المجال الأدبي.

كما شارك كل تخصص في دراسة التاريخ والأدب من خلال التطور الذي طرأ على النظريات التي تسعى بدورها إلى توفير الأساس المنطقي لمناهج الدراسة، حتى أصبحت النظرية الأدبية هي التفسير، وفي كثير من الأحيان صارت تسويغًا للمبادئ المطبقة في قراءة النصوص وتقييمها أو ما يسمى (النقد الأدبي). وفي سياق الحاجة إلى إعادة النظر في دور التاريخ الأدبي؛ تُعدُّ مجلة "التاريخ الأدبي الجديد" New Literary History واحدة من أبرز المشاريع الرائدة في هذا المجال، وقد أدى تركيز الدراسات الأدبية على النص وتفسيره إلى التركيز على مفهوم النوع والمشاكل المرتبطة باستعماله، في حين يحذر بينيديتو كروس[4] Benedetto Croce من أنَّ هذه الأنواع ليس لها وظيفة مفيدة من ناحية إضفاء الجماليات

1 دينيس دونوغيو ولد عام (1928م)، وهو ناقد أدبي إيرلندي يشغل منصب كرسي هنري جيمس للأدب الإنجليزي والأمريكي في جامعة نيويورك. له العديد من الإسهامات في مجال النقد الأدبي ومنها: كتاب أبجديات شرسة، وسياسات النقد الحديث، ومقالات في الأدب والمجتمع الإيرلندي وغيرها.

2 كتاب يضم مجموعة من المقالات النقدية في التطور الأدبي. نشر بواسطة مطبعة جامعة كولومبيا في 1984م.

3 والاس ستيفينز شاعر أمريكي من أهم شعراء أمريكا المعاصرين حاصل على جائزة البوليتزر للشعر عام 1954م. وله العديد من القصائد المشهورة منها: رجل الثلج، وثلاث عشرة طريقة للنظر إلى الشحرور وغيرها.

4 بينيديتو كروس (1866م–1956م)، وهو فيلسوف إيطالي، ومؤرخ، وسياسي. رُشح لجائزة نوبل في الأدب 16 مرة. وله العديد من الأعمال المهمة في الفلسفة منها: الجماليات، والمنطق، والفلسفة العلمية وغيرها.

على النص، كما يذكّر نورثروب فراي[1] Northup Frye قُرّاءَه أنّ وظيفة الأنواع هي توضيح الصلات بدلًا من تصنيفها فهي في رأيه ذات قيمة كبيرة للأدب (كروس، 1902، نقلا عن: آدمز، ص 35-726، وفراي1، ص 247).

إنّ عملية توضيح الصلات بين النصوص الأدبية التي يبدو أنها ترتبط في سمات مشتركة مثل: الرواية، وقصيدة النثر، والدراما تقودنا تِلقائيًا إلى البحث في عمليات التغيير العضوي حيث تتطور الأنواع إلى أشكال أخرى وتظهر أنواعٌ جديدة مثل قصيدة النثر. ومما لا شك فيه، أنّ الهدف الرئيسي من البحث هو الكشف عن التحول العام الذي يربط بين الأنواع والبحث في تطورها مع بعضها. وفي هذا السياق فإنَّ هذه الدراسات تواجه المبادئ المطبَّقة على الأساليب القديمة المتَّبعة في الدراسات الأدبية والتاريخية، خصوصًا في موضوع -التحقيب-[2].

ويعكس فراي المنطق التقليدي من التحقيب في قوله: "إنّ تاريخ الأدب ينقسم إلى سلسلة من الفترات الثقافية ذات الأطوال المختلفة، تهيمن عليها بعض الأعراف/التقاليد"(فراي2، ص 9-28). ولقد تمكن الدارسون في بحثهم عن الكتب والمجلدات المنظمة من أجل الاستقصاء عن ثروات التراث الأدبي العربي كما فعل زملاؤهم المتخصصون في التراث الأدبي العالمي، بهدف تحديد سلسلة من الفترات الثقافية، ولكنّ هيمنة بعض التقاليد التي ميزت المعايير السائدة في كل حقبة كانت مائلة إلى أنْ تستند إلى –أو على الأقل تضمين- المبادئ التي أقرّتها الطبقة الحاكمة التي أُشير إليها سابقًا.

وبعبارة أخرى، كان الدارسون يسعَونَ من خلال هذا الاستقصاء إلى تصنيف الناتج الأدبي بعيدًا عن هذه المؤثرات الداخلية. ومن الجدير بالذكر فإنّ الفجوة الأولى والكبرى التي أقرَّها الإسلام نفسه جعلت من العصر الإسلامي (بداية من السنة الأولى من التقويم الهجري 622م وما يسبقها) حقبة مميزة تُقصي شِعر الفترات السابقة له أيًّا كانت القيمة الفنية المرتبطة بشعر العصر الأقدم منه في الإنتاج الأدبي في اللغة العربية. ولعلّ أعظم ميزة ترتبط بتلك الحِقْبة على المستوى الثقافي، وخاصة الديني، أنها حقبة سابقة لشبه الجزيرة العربية ولغة التواصل العامة التي توفر السياق الذي تكشف فيه الرسالة القرآنية. في حين أنّ الحِقْبة التي تبعت الهجرة هي في الحقيقة تعبر عن (العصر الإسلامي) ولكنها قُسِمت فيما بعد إلى فترات فرعية: زمن محمد والخلفاء الأوائل، والأسرة الأموية، والأسرة العباسية.

ثم تأتي حقبة من خمسة قرون والتي غالبًا ما يتم تقسيمها إلى فترتين أو ثلاث وهو تاريخ غزو بغداد من قِبَل المغول، أما الحِقْبة التالية وهي موضوع المجلد الحالي -كما ذكرنا سابقًا- تقع بين 1258م و1798م، وهي زمن غزو نابيلون مِصرَ وهي المُدّة التي وصفت بعصر الانحطاط. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ طريقة التسمية بالأُسر الحاكمة تُوفِّر

1 نورثروب فراي (1912م-1991م)، وهو ناقد ومُنَظّر أدبي كندي. يُعدُّ واحد من أكثر النقاد تأثيرًا في القرن العشرين، فاز بالعديد من الجوائز الأدبية. وله العديد من الأعمال النقدية أبرزها كتاب تشريح النقد.

2 من المنشورات الأخيرة حول هذا الموضوع في: إشكال التحقيب وكتابة التواريخ، لمحمد مفتاح ولأحمد أبو حسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات، رقم: 56-1996م.

بديلًا لهذه الحِقْبة غير المقسّمة من خمسة قرون من الإبداع الأدبي عن طريق تحديد تاريخ الفتح العثماني لمصر عام 1516م كخطٍّ فاصل بين العصر المملوكي – وهي الأسرة التي حكمت كلًّا من مصر وسوريا- والعصر العثماني.

وأخيرًا، فإنّ استعمال عام 1798م كنقطة بداية للحقبة الحديثة إنما يبتعد عن تأثير القوى الحاكمة، بل ويعرّض مفهوم الحداثة، بوصفه مدخلاً، إلى فحص دور الغرب وأثره الرئيسي في إحداث التغييرات التي وقعت في المناطق العثمانية السابقة التي أصبحت فيما بعد دولًا مستقلة في أعقاب الحرب العالمية الثانية وهي ما تعرف اليوم باسم "الشرق الأوسط". هذه هي الخطوط العريضة التي اعتمد عليها مشروع "تاريخ كامبريدج للأدب العربي"، حيث يغطي مجلده الأول الحقبتين الأولى والثانية تحت عنوان "حتى نهاية العصر الأموي"، أما المجلدان الثاني والثالث فيغطيان الحِقْبة العباسية، وبسبب طول هذا العصر فقد تم تقسيم محتواه إلى جزأين بطريقة موضوعية أكثر من التركيز على الأسرة الحاكمة في تلك الحِقْبة.

ركّز الجزء الأول من المجلد على تناول "الأدب المحض –الجميل-"[1]، في حين ركز الجزء الثاني على مناقشة مجموعة واسعة من الموضوعات العامة الأخرى، التي تُعبّر في التعريف الأضيق لمصطلح الأدب عن كونها "غير أدبية". وكما ذكرنا سابقًا، فإنّ هذا المشروع الضخم يتناول الحِقْبة الحديثة بمعزل عن سلطة الأسر الحاكمة، بل ويعتمد في تنظيم محتواه على حساب عمليات التطور العام الذي طرأ على الأدب.

أما المجلد التالي في السلسلة فقد خُصِصَ للنتاج الأدبي لشبه الجزيرة الأيبيرية[2] خلال العصر الإسلامي، وهو نتاجٌ يمثل، أيضًا، انفصالًا إضافيًّا عن السلطة الحاكمة بل إنّه يتَضمَّن الاعتمادَ على توظيف الجغرافيا بوصفها طريقة تنظيم تكشف من خلالها عن الصفات الفريدة لهذه المنطقة، إذ تميزت بأنها (نقطة انصهار ثقافي) لتعدد أعراقها ولغاتها واتصالها بأوروبا من جهة وبالشرق الإسلامي من جهة أخرى. إلا أنّ هذه الميزة أثرّت بشكل سلبي في اختلاف وجهات النظر في الكتابات التي تناولت الأدب العربي في إسبانيا في تلك الحِقْبة، كما أثرت وتأثرت بها التطورات الأدبية التي حدثت خلال الفترتين الأموية والعباسية وما بعدها. ثم يأتي المجلد الأخير في هذه السلسة تحت عنوان "حقبة ما بعد الكلاسيكية" ليكون خاتمة الأجزاء السابقة.

الانحطاط والعصور الوسطى:

يدرس مارسال هودجسون Marshall Hodgson تداعيات مصطلح حديث بوصفه جزءًا من مناقشة التأريخ والتحقيب في التاريخ الإسلامي، وفي سياق مناقشة موضوع (العصور الوسطى الحديثة) التي حُدّد، من خلاله، العديد من الكتابات الأدبية التاريخية (هودجسون، 1993، ص 4-283). ولقد سبق لنا أنْ أشرنا إلى أنّ تأثير مفهوم (الحداثة)

1 مصطلح يطلق على قسم الأدب الذي ينطوي على ثقافة أدبية، وينتمي إلى مجال الفن بصرف النظر عن شكله الخاص ويشمل الشعر، والدراما، والخيال، والنقد.

2 شبه جزيرة إِيْبِيرِيَا أو شبه الجزيرة الإِيْبِيرِيّة أو إِبَارِيَة (كانت تسمى جزيرة الأندلس أو شبه جزيرة الأندلس أثناء حقبة الحكم الإسلامي للأندلس) تقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة أوروبا، وتتكون من إسبانيا والبرتغال وأندورا ومنطقة جبل طارق.

لم يقتصر على الزمن فحسب، بل في التقييم والتقدير أيضًا. على الرغم من أنّ الاعتقاد السائد هو أنّ المرء قد يفترض أنَّ الوقت الحالي الذي يعتمد عليه المنظور التاريخي هو أساس ضروريٌ يعكس مرحلة تطور الإنسان المُتقدّمة التي تسعى الحداثة باستمرار إلى تحقيقها. وفي هذا السياق اسْتُعيض عن مصطلح كلاسيكي، ومنحط –أو مظلم في السياق الأوروبي– بمصطلح قديم والقرون الوسطى في محاولة إلى جعل تقييم هذه الحِقْبة أكثر وضوحًا.

إنّ مصطلح (الانحطاط) يكشفُ عن عملية هبوط وانحدار، وهو يؤدي ضمنًا إلى مفهوم معارض للصعود في تقييم التغير الثقافي، فعملية الصعود والهبوط كانت محطَّ اهتمام العديد من مؤرخي الثقافات الأوروبية. وفي مثال آخر، فإنّ حقبة (الكلاسيكية) هي حقبة زمنية في الماضي البعيد يُعَبَّرُ من خلالها عن المُثُل الثقافية للجماعة. –وفي القرون الأخيرة، تردد بكثرة مفهوم الكلاسيكية مع مفهوم الأمة– وتأسس مفهوم الكلاسيكيّة وتوضّح من خلال استكشاف الكلاسيكية فنّيًّا بما في ذلك الأدب؛ والنتيجةُ سلسلةٌ من القيم والأعراف والتقاليد، –وهي الأنواع التي أشْتُق منها المصطلح نفسه– التي أصبحت نماذج للمحاكاة من قبل الأجيال.

وفي إطار المجلدات التي أشرنا إليها سابقًا، من الطبيعي أنْ تنتهي هذه الحقبة لارتباطها عادةً بالمستوى السياسي وتجزئة السلطة من جهة وبالمستوى الثقافي وحالة التدهور الأخلاقي من جهة أخرى، وهي ما تقودنا بالضرورة إلى اختيار مصطلح (الانحطاط). وبالرجوع إلى نموذج الصورة المُضمَّنة في الصعود والهبوط، أودُّ أنْ أشير إلى أنَّ الاتساع الزمني للهبوط الذي تمثله هذه الحِقْبة المظلمة والمتدهورة، لا يتمُّ تحديده من خلال العوامل الداخلية، بل من خلال عملية عودة الصعود التي تم تحديدها في وقت لاحق –ضمن العصر الحديث– دلالةً على بداية الاتجاهات والحركات الفكرية التي عززت تطور الحداثة.

كما أشار نورمان كانتور[1] Norman Cantor –بأسلوب مبتكر جدًّا– إلى أنّ تحديد الحقبة الكلاسيكية تحديداً زمنياً مع كل دلالاتها الكنسيّة يلزم بالضرورة عملية ابتكار للعصور الوسطى، وهكذا تصبح الكلاسيكية شكلاً من أشكال (النهضة) وهي مَزِيةٌ ضمنية في عملية التغيير –الولادة من جديد– تنتهي عندها (الحِقْبة الوسطى) وتبدأ منها (الحِقْبة الحديثة). ومن هذا المنطلق، وقع تحديد (حقبة الانحطاط) عند كلا الطرفين: (الهبوط؛ يؤدي ضمنياً إلى الانخفاض والتدهور في مُثُل الكلاسيكية) في حين أنَّ (الصعود – المصطلح العربي (النهضة) هو الترجمة الحرفية لعملية الحركة الصعودية–؛ يؤدي إلى النهضة والازدهار).

1 نورمان كانتور (1929م–2004م)، وهو مؤرخ أمريكي–كندي متخصص في دراسة القرون الوسطى. وله العديد من الأعمال منها: حضارة العصور الوسطى، وكيف يُدرس التاريخ وغيرها.

ولعلَّ في توصيف الآتي للثقافة الأوروبية، الذي يحمل تاريخًا محددًا ما يوضّح هذا النوع من التحليل التاريخي والقيم التي تكمن وراءه. يرى القس جيمس وايت The Reverend James White في الفصل الأول المعنون بـ(الظلام واليأس) من كتاب "القرن الثامن عشر المسيحي"، "يجب أنْ نتذكر دائمًا أنّ القرن العاشر هو أشدُّ فترات التاريخ الحديث فظاعةً وأكثرُها ظلاميَّةً؛ لقد كان الأمر أشبه بمنتصف الليل في العقل البشري، وبعيد المنال عن الشفق الخافت الذي خلفته الثقافة الرومانية ولا يزال كذلك من سطوع الحضارة العالمية الجديدة" (وايت، 1862، ص 219).ولو انتقلنا من النظرية إلى واقعية أكثر، نشير إلى أنّ مؤرخ الأدب يحتاج إلى أنْ يهتم بالعوامل المشاركة في عمليات التغيير هذه، أو بعبارة أخرى، بالاستمراريات والانقطاعات– في حين أنَّ النماذج السائدة من التاريخ الثقافي هي تقسيمات للبدايات والنهايات فقط.

يمثّل عام 1258م نهاية الحِقْبة العباسية الذي كان نقطة تحول مهمة في منطقة محددة وعند وجهات نظر معينة. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ عرض المجلدين لتاريخ كامبريدج للأدب العربي المخصص لهذه الحِقْبة يكشف عن بعض المشكلات المرتبطة باستعمال مثل هذا التاريخ والمبادئ الكامنة وراءه. ونجد أنَّ هذه المجلدات لم تهتم كثيرًا بدراسة القرن الثاني عشر أو الثالث عشر، مما يوحي بأنَّ البحث في المجال الثقافي عن عمليات التغيير التي ربما حدثت في حقبة مبكرة أو مختلفة على الأقل. وعلى الطرف الآخر من المدى الزمني الذي لم يحدد بعد، فإنَّ اعتماد عام 1798م كنقطة تقسيم – وهذا لا ينطبق إلا على حالة مصر– يتوارد إلى الأذهان سؤال حول ما يمكن أنْ تكون عليه القوى الثقافية المؤثرة خلال القرن الثامن عشر في مختلف مناطق الإمبراطورية العثمانية.

إنَّ الجزء المخصص للعصر الحديث من مجلد "تاريخ كامبريدج للأدب العربي" والمعنوَّن بـ "الأدب العربي الحديث" يزيد اهتمامنا أكثر، إذ عُدَّ عام 1834م بداية الحِقْبة الأولى من العصر الحديث. وكل هذه القضايا النظرية منها والعملية تُجمع على أنَّ الصلاحيات الزمنية لحقبة ما بعد الكلاسيكية يجب أنْ تكون ممتدة على مدار سبعة قرون تقريبًا، منذ حوالي 1150 حتى 1850م. ومن ثَمَّ لا تتضمن مناقشةً للناتج الأدبي لهذه الحِقْبة فحسب، بل لبحث الاستمرارية الثقافية التي تربطها بما قبلها وبما أتى بعدها. سنناقش فيما يلي بعض العوامل المرتبطة بعمليات التغيير التي تجعل حقبة ما بعد الكلاسيكية وما قبل الحديثة قابلة للتحقيق في بعض المبادئ التنظيمية، ومما سيحكم تحقيقنا هي الحِقْبة الواقعة بينهما في التسلسل الزمني.

من الكلاسيكية إلى ما بعد الكلاسيكية:

في إشارة لمصطلح (ما بعد الكلاسيكية) في سياق دراسات الأدب العربي يُحدد كلود كاهن[1] Claude Cahen جُزءًا من مناقشته للكتابة التاريخية، حقبة تبدأ من منتصف القرن الحادي عشر "كان ذلك ملحوظًا...بسبب انقطاع

1 كلود كاهن (1909م – 1991 م)، مستشرق ماركسي فرنسي متخصص في التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى وبخاصة في البحث عن المصادر الإسلامية في حقبة الحروب الصليبية. من أشهر أعماله: مقدمة لتاريخ العالم الإسلامي في القرون الوسطى بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين.

استمرارية الأدب بسبب الاضطرابات السياسية التي لم تغير الحدود فحسب، بل أعطت السلطة لطبقة أرستقراطية ليس لديها معرفة بالتقاليد أو حتى باللغة العربية"[1] .فالاضطرابات التي يشير إليها كلود كاهن تنضوي على انهيار في سلطة الخلافة المركزية، ويمكننا النظر إلى بداياتها التي تعود إلى حقبة سابقة عندما بدأ الخلفاء العباسيون في الاعتماد على القوات التركية، ومع إضعاف إدارة الخلافة في بغداد دخلت سلالة الشيعة البويهية لأول مرة في فراغ السلطة في بغداد عام 945م ثم السلاجقة الأتراك عام 1055م. وبذلك اكتملت عملية التفريع –التشعب–، حيث أصبح هؤلاء يمثلون مركزًا دنيويًّا للسلطة في حين ظل الخليفة رمزًا دينيًّا، وقد انعكس هذا الاضطراب في السلطة في العاصمة العباسية (بغداد) والمناطق المحيطة بها من الإمبراطورية الإسلامية، وقام الولاة الذين عُيّنوا في المناطق الإدارية باستغلال عدم وجود سلطة مركزية وتحويل إدارتهم إلى سلسلة من الأسر الحاكمة.

إنَّ اتساع نطاق الرقعة الإسلامية ومدى انتشارها وتنوع داخلها في القرن العاشر أدى إلى تكوين ثلاث دول وخلافات منفصلة في بغداد والقاهرة وقرطبة، وأدت اللامركزية في السلطة إلى خروج واضح على المُثُل التنظيمية التي طُورت فيما بعد خلال التاريخ المبكر للمجتمع المسلم. وعلى الرغم من وجود مراكز متعددة للسلطة والنفوذ كان هذا الوجود نعمة على الحياة الفكرية والتي كانت مصدر للاهتمام من قبل الأدباء والباحثين. وبالفعل، لقد كتب الباحثان آدم ميتز[2] Adam Mez وجويل كريمر[3] Joel Kraemer دراسات تُصنّف وتصف العصر الذي بدأ من القرن العاشر كواحد من عصور (النهضة)[4].

ومن خلال البحث عن القوى التي قد تكون ساهمت في مثل هذه التطورات، والتي قد وصفها آدم ميتز وجويل كريمر وغيرهم من الباحثين على أنها عاملٌ مهمٌ في التدابير التي فُرِضَت على مجتمع علماء الدين التقليديين من خلال الحاجة إلى تحقيق المصالحة بعد الصدمة الناجمة عن (محاكم التفتيش) أو (المحنة)، وكان ذلك في عهد الخليفة المأمون عام 833م؛ إذ اسْتُجوبَ العلماء والمثقفون وأصحاب المناصب الرسمية بشأنِ معتقداتهم حول خلق القرآن التي أقرَّها المُعتزلة. ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الحِقْبة ساهمت في إدخال شيء جذري جديد على الحياة الفكرية للمجتمع الإسلامي، كما علَّق طريف الخالدي "بصرف النظر عن انعكاساته السياسية والطائفية الكبرى، لقد كان الأمر أشبه بتعدٍّ على الخصوصية وتأكيدًا على قوة الإرادة الملكية على الضمير الفردي في نطاق واسع" (الخالدي، 1992، ص 112).

في أعقاب انتهاء المحنة في 848م، كان المبدأ الذي يسعى إليه العلماء المحافظون ضمانَ قبول مفاهيمهم الخاصة بالإسلام الصحيح من خلال إنشاء المؤسسات التعليمية التي يتم فيها وضع منهج دراسي منتظم والحرص على اختيار من

1 انظر، تشارلز، ص216.

2 آدم ميتز (1869م–1917م)، هو مستشرق سويسري–ألماني. اهتم بالأدب العربي في القرن الرابع الهجري وما تلاه.

3 جويل كريمر، أستاذ فخري في مدرسة اللاهوت ولجنة الفكر الاجتماعي في جامعة شيكاغو.

4 ميتز، نهضة الإسلام؛ كريمر الإنسانية في نهضة الإسلام.

يتسلم مناصب القضاء والحكم. وقد حصل الطلاب الذين أكملوا هذه المناهج على الرخصة المهنية لتدريس الأحكام القانونية وهو موضوع دراستين منفصلتين لجورج مقدسي (ص 23). ومنذ عام 954م حتى منتصف القرن الحادي عشر خلال حقبة البويهية تم تطوير مهام إعادة التفكير والمنظومات في إطار التحديات التي تقدمها طرق التفكير التقليدية من خلال ما توافر من المعرفة الهلينستية[1] والأنشطة العلمية المحفزة. وقد تعززت هذه الطرق من خلال انتشار مراكز القوى — على سبيل المثال، في ري، وحلب، والقاهرة، وقرطبة– مما ساهم في ضمان أنَّ منتجات هذه الجهود سوف تعكس التنوع الهائل للعالم الإسلامي والنظرة العالمية المتزايدة لعلمائها وأدبائها.

ونجد في بغداد نفسها، التقديرَ الذي منحه الخليفة لأولئك الذين ساهموا في إدارة البلاط وبثّ التنوير في أروقته ممن تقَّلدوا مواقعهم من قِبل الوزراء ومسؤولي البلاط الآخرين، ومن بين العديد من الأمثلة نرى عائلة البرمكي التي خدمت كوزراء عند هارون الرشيد هي الأكثر شهرة من بين الجميع. وفي خارج العاصمة شكلت مهنة الشاعر الشهير المتنبي (965م) بابًا للفرص التي كانت متاحة لشاعر موهوب بالمَلكة والفطرة كان يدرك قيمة موهبته وأخذ يتنقل بين مراكز السلطة وقصور الملوك ساعيًا للرعاية والمكافأة، ويمكننا قول الشيء نفسه عن أسفار كاتب النثر العظيم المُثير للجدل أبي حيّان التوحيدي وحياته في بلاط ري، وهي نماذج تُمثلُ تصورًا للبيئة الفكرية المحفزة التي يمكن أنْ تلد هذه المراكزَ. ولقد تولّى التوحيدي منصبًا إداريًّا متواضعًا.

والمؤرخ مسكويه (1030م) الذي عمل أيضًا كأمين للمكتبة، والفيلسوف العامري[2] (992م)، والمصمم العظيم أبو الفضل ابن العميد (970م)، والسياسي الصاحب ابن عبّاد (995م) الذي كان مُلمًّا بالفنون والعلوم والكتابة والتدوين. وفي الوقت الذي نسعى فيه إلى تحديد الروابط والاستمرارية التي ربطت بين الأزمنة الأولى والحِقْبة الطويلة التي ندرسها وما يسبقها، حاولنا في الفقرات السابقة إجراء مسح، وإنْ كان موجزًا، بذكر بعض المزايا والشخصيات التي ساهمت في الحِقْبة التي أطلق عليها (العصر الذهبي والنهضة).

في هذا السياق، قد يُنظر إلى اثنين من الأدباء الذين ذكرناهم (المتنبي والتوحيدي) على أنهما كانا يتصرفان بطريقة متناقضة —ذات وجهين–[3]، إلا أنَّ كليهما يدركان بعمق التراث الأدبي الذي يرثانه، فعند المتنبي نجد أنّه تبع التقاليد الشعرية العظيمة للغة العربية منذ بدايتها حتى ظهور الصور الشعرية الخارجة عن المألوف عند سلفه أبي تمام (6–845م)، أما التوحيدي فهو الشخصية المغالية من الجاحظ (9–868م). ثم في حقبة لاحقة نرى أنَّ الإلهام الذي قدمه

1 الفلسفة الهلنستية هي مرحلةٌ من الفلسفة الغربية التي تطورت في الحضارة الهلنستية بعد أرسطو، وقبل ظهور مذهب الأفلاطونية الحديثة، وضمّت المدارس الفلسفية الفيثاغورسية والسفسطائية والأفلاطونية والمتجولين والكلبية والسيروانية والأبيقورية والرواقية والشكوكية والتركيبية والهلنستية اليهودية والفيثاغورسية الحديثة وهلنستية مسيحية.

2 أبو الحسن محمد بن يوسف العامري النيسابوري.

3 استعمل جون إلين مصطلح Janus-like وهو مصطلح تشبيهي يرجع إلى الإله ياونس–جانوس: هو إله البوابات والمداخل والطرق والمخارج في الميثولوجيا الرومانية، هذا الإله له وجهان، وجه ينظر للمستقبل ووجه ينظر للماضي.

المتنبي لأجيال المستقبل من الشعراء العرب ظهر في أول ديوان لأبي العلاء المعري "سقط الزند" على الرغم من رؤية المعري التشاؤمية وآرائه المتمردة التي فرضت على قصائده صوتًا خاصًّا في وقت لاحق.

أما في سياق الأنواع النثرية، فإن مهنة الثعالبي واهتماماته (1038م) جاءت انعكاسًا مناسبًا لعصر كانت فيه المجموعات والمختارات أسلوبًا مفضلًا لتدوين استعمال اللغة ولتسجيل الحكايات والنوادر والمناقشات التي من شأنها التثقيف والتسلية. ويمثل هذان الاتجاهان–التأليف والتجميع– نسبة كبيرة من ناتج الحِقْبة التي يتناولها هذا المجلد، ونجد أنَّ هذه الملاحظات كانت موضوع تعليقات أحمد أمين، ومن الواضح أنها ليست السمات الأدبية الأكثر إثارة للإعجاب بين المحليين الغربيين للتداول الثقافي عن الشرق الأوسط الإسلامي. وخاصة أولئك الذين فحصوا إنتاجه من خلال العدسات النقدية في العصر الرومانسي وما بعد الرومانسي.

ومن الضروري أن نركّز على هذا الجانب وسياقه التاريخي الذي أكدَّه عبد الفتاح كيليطو في ملاحظته "إنّ مجرد التساؤل عن ما هو الطبيعي في الأدب يشير إلى أنَّ ذلك ليس أمرًا بديهيًا؛ الأسلوب المطبوع أسلوب مُطبَّع، أي عرف من أعراف الكتابة قد تم ترسيخه مبدأ طبيعيًا. والعرف المقصود هنا هو ذلك الذي قام في الغرب خلال القرن التاسع عشر على أنقاض البلاغة...فالأنواع الشعرية التقليدية لها بالإضافة إلى شكل عروضي، شكل داخلي يوجه المضمون الموضوعاتي، والنبرة الخاصة بكل نوع، والتي يشير إليها تصريحًا اسم النوع ذاته" (كيليطو، ص 3-92).

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى نقطتين، أولًا: إذا أردنا تقييم الجوانب الأدبية لهذه النصوص فإنّ من الواضح أنّ هناك حاجة لاعتماد معايير مختلفة. كما يشير ستيفان ليدر[1] Stefan Leder وهلاري كيلباتريك[2] Hilary Kilpatrick في سياق اقتراح مثل هذه الحاجة: "إنَّ عملية التجميع هي بحد ذاتها فن وتظهر الدراسات ومجموعات المختارات الأدبية الكتيبات الناتجة عنها –غالبًا– معايير جمالية خاصة بها يجب علينا دراستها وفحصها" (ليدر وكيلباتريك، 1992). ثانيًا: أنّ المظهر الثقافي الذي ترسمه هذه الصورة جزئي، ومن المؤكد أنّ أسلوب التجميعات (الكتب الموسوعيّة) بدأ مبكرًا عند نماذج مميزة مثل ابن قتيبة (889م) والثعالبي (1038م) والراغب الأصفهاني (قبل 1100م) والمؤرخ العظيم القلقشندي في "صبح الأعشى" (1418م) – سيتم مناقشته بمزيد من التفاصيل بوساطة محسن جاسم الموسوي في الفصل الخامس من هذا المجلد–، وعلى الرغم من أنَّ ظاهرة الأسلوبية في الخطاب الشعري المعروف باسم البديع –استعمال اللغة التصويرية– قد قُدِمتْ بطريقة رائعة من قِبل عبد القاهر الجرجاني، كما كان الاتجاه النقدي في المؤلفات الضخمة يميل إلى تصنيف القوائم الشعرية تبعًا للأفضل.

1 ستيفان ليدر، بروفيسور ألماني. يشغل منصب أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في جامعة مارتن لوثر في ألمانيا. له العديد من الأعمال أبرزها كتاب دراسات عربية وإسلامية.

2 هيلاري كيلباتريك، بروفيسورة سويسرية. شغلت منصب أستاذ للغة العربية في جامعات أوروبية مرموقة في هولندا وسويسرا والمملكة المتحدة. لها العديد من الأعمال منها: دراسة في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، دراسة في الرواية المعاصرة في مصر، كما قامت بترجمة مجموعة من الأعمال القصصية.

ونجد أنَّ جماليات التعبير الشعري وجدت صداها أيضًا عند مدرسة الإنشائية الأسلوبية في كتابة النثر، وقد ذكرهم التوحيدي في من أقاموا في ري مثل: أبو الفضل ابن العميد (970م)، وأبو بكر الخوارزمي (993م)، ولحقبة قصيرة بديع الزمان الهمذاني (1008م). وفي حقبة لاحقة أصبح خطاب النثر أكثر غنىً، ونجد بوضوح أنَّ العديد من المؤلفين سلكوا هذا الاتجاه ومنهم من عملوا عند صلاح الدين الأيوبي مثل: القاضي الفاضل (1200م)[1]، وعماد الدين الأصفهاني (1201م)[2].

إلا أننا وجدنا أنّ هذه الاتجاهات ساهمت في ظهور عدد كبير من الإنتاج الإبداعي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بما لا يتوافق مع النموذج الذي وصل إلينا. وهنا يجب أنّ أؤكد مرة أخرى، أنني لا أسعى إلى النظر في الناتج الأدبي لشبه الجزيرة حيث نشأت الأنواع الأدبية بمختلف أشكالها. –على الأقل، الأنواع الشعرية القوية– بل لأوضح الحاجة إلى مراجعة الترتيب الزمني بشكل مختلف.

ويمكننا استعراض هذه النقطة من خلال عدد من الأدباء الذين اخترنا أسماءهم لأسباب عديدة، ومنهم على سبيل المثال: ابن الفارض (1235م) الذي جعله شعره الغامض وصوره الشعرية في الخمر والحب كمنافسٍ عربي للموروث الفارسي العظيم، والبوصيري (1296م) الذي نظم قصيدة "البردة" في مدح النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– التي أصبحت أكثر قصائد الأدب العربي لمعانًا (هوميرن، 1997). ومع ذلك، عند النظر في مشاكل تقييم المعايير وإعادة تقييمها أود أن أشير إلى نوع (المقامة) وهو الموضوع الذي ستتم مناقشته بواسطة ديفن ستيوارت في الفصل السابع من هذا المجلد.

فبعد ظهور أنماط أدبية أخرى ظهرت المقامة داخل التقليد الأدبي العربي نتيجة دمج عدد من الأشكال والأساليب، والهمذاني مثل كثيرين آخرين ممن قدموا إلى مجلس ابن عباد في ري[3]، وقد وظَّف موهبته الفذة في الخطاب النثري الأكثر تميزًا واختار شكلها القائم على السجع – النثر الإيقاعي والمقفَّى– لتصوير ضعف الإنسان ومن ثَمَّ إنتاج مقتطفات من التجمعات الفكرية والمواقف الاجتماعية التي نُظِرَ إليها بحق على أنها إرهاصات مبكرة للبيكارسك[4].

1 هو عبد الرحيم البيسانيّ، المعروف بالقاضي الفاضل، أحد الأئمة الكتَّاب، ووزير السلطان صلاح الدين الأيوبي حيث قال فيه صلاح الدين: "لا تظنوا أني فتحت البلاد بالعساكر إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل"، وفي رواية أخرى: "لا تظنّوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل".

2 هو عماد الدين الكاتب، ماد الدين الكاتب (1125م–1201م) مؤرخ وأديب وشاعر عاصر الدولة النورية والأيوبية. وقدّمه قاضي دمشق كمال الدين الشهرزوي إلى نور الدين زنكي ملك دمشق حيث عيّنه معلمًا في المدرسة النورية التي عرفت فيما بعد بالمدرسة العمادية، ثم ولّاه بعدها الإشراف في ديوان الأنشاء. بعد أن بلغه أن صلاح الدين الأيوبي عاد من حروبه إلى دمشق، اتصل بالقاضي الفاضل الذي توسط في أمره وعيّن في ديوان الإنشاء نائباً للقاضي الفاضل. وقد عاش حياته في دمشق ورافق صلاح الدين الأيوبي في حياته ومعاركه.

3 مجلس الصاحب ابن عباد.

4 الرواية الشطارية، أو خيال الشطار المعروف كذلك بالرواية الصّعلوكية، وهو جنس أدبي نثري تميز به الأدب الإسباني حيث نشأ في القرن السادس عشر بإسبانيا وازدهر في جميع أنحاء أوروبا الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ونتيجة دور الهمذاني الرائد والمعترف به بالفعل عند دارسي الرواية العربية فقد نُظر إلى مقامات الهمذاني كسابقة مبكرة للقصة ساهمت في التطورات الحديثة للأنواع السردية، ثم جاء خليفته البارز الحريري وقام بتقليد عبقري توج هذا النوع. ولو نظرنا إلى المقياس الغربي للمفاهيم في ما يمكن أنْ يكون عليه السرد وأنواعه، غالبًا ما ينظر إلى الحريري على أنه تردَّى بعض الشيء عن جماليات عصره وهكذا مثل شعر المتنبي والمعري.

ولقد أصبحت مقامات الحريري كأنها الإنجاز النهائي لأولئك الذين يبحثون عن نقطة إغلاق ملائمة للإعلان عن نهاية حقبة (الكلاسيكية). فالمقامات بنهاية ظهورها صُنفت بوصفها نوعًا حديثًا خلال القرون التي تلت، كما أنها كانت طريقة مفضلة للتعبير إذْ استفاد منه نخبة مثقفة في تلك الحِقْبة ومنهم: الزمخشري (1143م) وابن الجزري (1273م) وجلال الدين السيوطي (1505م) وشهاب الدين الخفاجي (1653م).

وقد كانت مقامات الحريري تُقرأ في مجلس الزبيدي في مصر، وكانت مصدر إلهام لناصيف اليازجي في "مجمع البحرين". ومن ثَمَّ فإن تاريخ المقامات يمثل مثالًا ممتازًا على انتشار هذا النوع الأدبي خلال الحِقْبة التي نحن بصدد دراستها، وعلى المعايير الجمالية المختلفة التي ضمنت استمرار شعبيتها. ومن الضروري أن تكون هذه المناقشة الموجزة لبعض القضايا المرتبطة بتأسيس المراحل السابقة للحقبة المدروسة أن تُبنى على أسس منطقية بما يضمن اختياراتها المفتوحة. وقد تبين لنا من خلال الفقرات السابقة أنه لا يزال هناك الكثير مما يجب النظر فيه أو إعادة النظر فيه. ومن خلال هذا الاستطلاع اعتقد أنه في هذا السياق الأدبي–التاريخي لا يمكن أن

يكون عام 1258م يشكل لنا حقبة مفيدة، وأنّ أهم عمليات التغيير في هذا السياق تنتمي إلى حقبة سابقة.

من "ما قبل الحداثة" إلى الحداثة:

أشرنا في الأجزاء السابقة إلى الحاجة إلى إجراء مزيد من الدراسات حول المؤلفين الفرديين والاتجاهات الأوسع خلال القرون التي تتبع الأدب العربي الذي شكل أبعاد الحقبة الكلاسيكية. ومع ذلك عندما نقارن المعلومات والآراء التي وصفتها سابقًا بـ(ما قبل الحداثة) نجد أن الأولى تشكل ثروة الثروات[1]. إذ عُدَّ عصر (ما بعد الكلاسيكي) واحدًا من عصور الانحدار بعد الازدهار في العصر الذهبي، ونجد أنّ الحِقْبة التي تلت الفتوحات العثمانية (1516م في حالة مصر) تُصنّف من قِبل التاريخ الأدبي على أنها أكثر الفترات انحطاطًا من الإبداع الأدبي.

وهذا الإصرار على التوضيح المؤكد عليه أعلاه والمُتصل بالحقبة المبكرة نجده في اقتباس أحمد أمين الآتي الذي تحدّث فيه عن موضوع ازدراء طه حسين وصفه الثقافة العربية على عتبة التغيير التي تمثل نقطة نهاية للحقبة التي ندرسها "في بداية العصر الحديث كان الأدب العربي راضيًا عن مكانته وواثقًا من أنه يلبي حاجة قرائه من خلال الجمال الفني المعبَّر عنه بالكلمات، كما كان مقتنعًا بالعلاقات التي تربطه بالأدب العربي المنحطّ، معتقدين أنّ الأخير يمثّل أعلى

1 وصفها إلين بـEmbarras de richesses وهو مصطلح فرنسي يقصد به الوفرة والثروة.

أشكال الكتابة الأدبية وهو الأقرب إلى المثاليات الجمالية الأدبية، ففي بداية وخلال القرن التاسع عشر ظن الكتَّاب والشعراء أنهم كانوا يؤدون واجباتهم إذا صاغوا عبارات وجملًا باستعمال أسلوب البديع. ومن خلال كتابة نصوص أدبية من مختلف الأنواع الأدبية فإنهم كانوا يشيرون إلى المعاني التي تعبر عن ذواتهم وربما عن نسبة ضئيلة من الآخرين. وقد اقتنع هؤلاء القرّاء باستقامة هذا النوع من الأدب؛ وتعلّقت النخبة به بينما تحول القراء الآخرون بدلًا من ذلك إلى الزجل والموال وأشكال السرد الشعبي"[1].

ومما لا شك فيه أنّ طه حسين يلفت الانتباه إلى سمة مهمة في الثقافة العربية الشعبية، وهي موضوع ما سنبحثه أدناه. ومع ذلك فإنّ الآراء التي يعبر عنها اتجاه الأدب العربي خلال القرنين السابقين ما قبل عام 1798م – وهو التاريخ المرجَّح لبداية الحِقْبة الحديثة في مصر– تعكس موقفًا بشكل طبيعي كان له التأثيرُ السلبيُّ في كمية الدراسات وجودتها التي تناولت تلك الحقبة. وكنتيجة طبيعية فإنّ أي تقييمٍ لعملية التغيير هذه هي محور تركيزنا في هذا الجزء، والتي تصنف عادة تحت عنوان (النهضة) وتعرقل إلى حد كبير أية محاولة لخلق التوازن في الأهمية النسبية والفوائد فيما يتعلق بالحِقْبة السابقة وغزارة الحِقْبة الأخيرة.

إنّ مفهوم النهضة يجب أنْ يكون مساويًا تقريبًا للنماذج والمعايير الأدبية الأوروبية المستوردة التي بالكاد تأتي صدفة، وهذا لا يعني بطبيعة الحال أنَّ تأثير هذه المواجهة الثقافية لم يكن عميقًا بالفعل، بل يشير إلى حقيقة أنَّ معلوماتنا المتعلقة بالثقافة الأدبية الأصلية تجعل وجهة نظرنا أحادية الجانب. ونجد على الأقل أنّ أحد النقاد البارزين في الأدب العربي الحديث ناقش نتائج هذا المنهج المائل بشدة لطبيعة النهضة وعملياتها المحيِّرة، وهنا ما قاله ميخائيل نعيمة: "لقد سُئلتُ كثيرًا عن ما نعنيه بكلمة النهضة، هل يعني أننا لم نكن نولي اهتمامًا لكننا استيقظنا الآن؟ أم كنا مستلقين على ظهورنا والآن وقفنا؟ أو أننا كنا نسير في مؤخرة موكب الحياة بينما نحن الآن في الوسط أو ربما اقتربنا من الجبهة؟! عندما نتخذ خطوة واحدة في كل مرة كيف لنا أن نعرف ما إذا كنا نتحرك إلى الأمام أو الخلف أو نبقى في مكاننا؟" (نعيمة، 1997، ص 217).

إنّ ما وراء عدم الاستمرارية بين ما قبل الحداثة والحديث نتيجة حتمية للمواقف التي عبر عنها طه حسين في طرحه قضيةً ثقافيةً مهمةً، ولقد واصل مناقشتها في المقالة نفسها التي نشرت في عام 1930م "عندما قرأوا بعض النصوص الأدبية التي ظهرت أصلًا في العصر العباسي، اكتشفوا قربًا من الطبيعة وبعدًا عن التصنع، ودورًا للشعور

1 طه حسين، الجديد (1930)؛ نشر في صحيفة أخبار الأدب – صحيفة صدرت عام 1993م عن دار أخبار اليوم في القاهرة كدورية ثقافية أسبوعية. تتناول الصحيفة أخبار الأوساط الأدبية والفنية، وتستعرض الإصدارات العربية والعالمية الحديثة، والقضايا الفكرية المتداولة– ص186 في (2 شباط. 1997م)، ص30 من كتابه مستقبل الثقافة في مصر، ترجمته إلى الإنجليزية سدني قلازر (واشنطن، 1954م). أوضح طه حسين رأيه بأن مصر يجب أن تسعى إلى محاكاة القيم والمعايير الثقافية الأوروبية، من بين الأسباب أن موقعها الجغرافي على البحر الأحمر المتوسط قد تحالف معها بالفعل، مع التقاليد في أوروبا.

والعاطفة والفكر، كما أدركوا المسافة بين الأدب النابض بالحياة الذي يقرؤونه الآن والأدب الميت الذي اعتادوا عليه، كما خلصوا إلى أنّ تلك الأدبيات القديمة كانت في الواقع أقرب إلى مشاعرهم وأكثر قدرة على التعبير عنهم من الأدب الحديث المحتضر الذي لم ينجح إلا في أنْ يعكس قدرة كتَّابه على جمع العبارة وتوزيعها"[1].

وهنا تجدر بنا الإشارة إلى أنَّ حِقبة القرن السابع التي يغطيها هذا المجلد لم تعد الآن مُهمَّشة ومتجاهلة لقيمتها، بل قفزت من أجل أنْ يجدد أدباء القرن التاسع عشر –المزدهر– منذ حوالي تسعة أو عشرة قرون سابقة، وهي الحِقْبة التي نوقشت في الفقرات السابقة. وعلى ما يبدو فإنّ مهمة التحديث تنطوي على مواجهة مزدوجة، أولها وأكثرها وضوحًا: التحدي المتمثل في عَدِّ الحضارة والثقافة الغربية أكثر تقدمًا –من خلال النظر في عدد من الكتب المنشورة في مصر خلال مطلع القرن حول (التقدم والتراجع)–[2]، وثانيهما الحاجة المُلحة التي تعززت في السياق الأول إلى إنكار العملية المتعلقة داخل الثقافة العربية والإسلامية، حيث نُقِلت المعرفة – بوصفها ميراثًا ثمينًا– من جيل من الدارسين إلى جيل آخر.

وهكذا من خلال بحثنا عن الروابط التي يمكن أن ينظر لها على أنها ربط بين ما هو (ما قبل حديث) في التقليد الأدبي العربي مع ما هو (حديث)، نجد أنفسنا أمام مجموعة من الآراء السائدة التي تدافع عن قطيعة متعمدة مع الماضي والتنصل من قيمته بوصفه ماضيًا مُنشئًا القيم الجماليّة. ونرى أنه رأي سائد، ويجب على المرء أنْ يضيف ما يبدو أنه مغالط في مبادئه التنظيمية. ولقد حاولت القليل من الدراسات تحت التخصصات المختلفة النظر في تلك الحِقْبة، ومنها دراسة كينيث كونو[3] Kenneth Cuno "فلاحو الباشا" التي قام فيها بدراسة أنماط ملكية الأراضي الريفية في مصر بين عام 1740م و1858م، وتخلى فيها عن وجهة النظر السائدة عن مصر الحديثة في تلك الحِقْبة بوصفها (الجميلة النائمة)؛ إذ كانت صحوتها نتيجة اتصالها مع أوروبا (كونو، 1992،ص 15) [4].

أما الدراسة الأخرى فلبيتر جران[5] Peter Gran في كتابه المعروف عن الحياة الثقافية المصرية قبل غزو نابليون "الجذور الإسلامية للرأسمالية" (1979) الذي يرسم صورة مجتمع فكري بعيد البعد كلّه عن حالة (الاحتضار) التي اقترحها دعاة النموذج المفضل. وربما من المفارقة أنْ نجد الدارستين مع تركيزهما على (الاستمرارية) يدرسان حالة مصر،

1 طه حسين، الجديد (1930).

2 مثل: سر تقدم الإنجليز، وحاضر المصريين.

3 كينيث كونو، باحث وكاتب في التاريخ، متخصص في دراسة تاريخ الشرق الأوسط الحديث. وله العديد من الأعمال منها: فلاحو الباشا: الأرض والمجتمع والاقتصاد

4 كونو، فلاحو الباشا: الأرض المجتمع والاقتصاد "The Pasha's Peasants: Land, Society, and Economy"، مطبعة جامعة كامبريدج، 1992م، ص15. ترجمته إلى العربية سحر توفيق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م.

5 بيتر جران، أستاذ التاريخ المصري الحديث بجامعة تمبل، اشتهر بكتابه الجذور الإسلامية للرأسمالية: مصر1760م–1840م.

وهي المنطقة التي ظهرت فيها أنماط تطور الغالبية العظمى من نماذج (التحديث) ونماذجها في الشرق الأوسط العربي، وغني عن القول: إنَّ الأماكن الأخرى في المنطقة تختلف فيها الأنماط اختلافًا كبيرًا.

وهنا، قد يسأل المرء على سبيل المثال ما الأنماط المكافئة في منطقة أبعد جغرافيًا مثل العراق والمغرب؟ أو بشكل أكثر تحديدًا ما القوالب البديلة للتطور التي نستطيع أنْ نعتمدها في معرفة التقاليد المنتشرة على نطاق واسع في العراق خلال القرن التاسع عشر من جهة والوصول إلى حقيقة أنها عززت ظهور أهم الشعراء الحداثيين في القرن العشرين من جهة أخرى؟[1]. وقد أدّت الأحداث في الشرق الأوسط خلال النصف الأخير من القرن العشرين، وبالأخص حرب يونيو/حزيران 1967م التي قادت عددًا من المفكرين العرب إلى إجراء مراجعة جذرية للأسس التي حُددتْ من خلالها منظومة القيم الثقافية عند العرب ومن ثمَّ دراستها[2].

ومن أجل محاولات تعريف مفاهيم التراث والأصالة وتصنيفها وضع عدد من العلماء أنفسهم لدراسة العلاقة بالتراث، وأكدوا الحاجة المستمرة إلى إعادة النظر في المبادئ والمراحل العلمية المتصورة للتاريخ الحديث في المنطقة، ومن الواضح أنَّ القضايا التي أثرناها للتو بشأن تعريف النهضة هي جزء من هذه الأجندة العلمية. وعلى الرغم من ذلك، وبصرف النظر عن التحولات في تقييم الأهمية النسبية للعوامل الأصلية والمستوردة التي قد تنشأ عن مثل هذه البحوث المستمرة كما أوضحت المناقشات السابقة —في اعتقادي– صعوبةً أو ربما استحالةَ تقديم أيِّ شيء يشبه الصورة الواضحة أو الشاملة للإبداع الأدبي خلال ما أطلق عليه حقبة (ما قبل الحداثة). وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ الأجزاء التي خصصت لتلك الحِقبة وقضاياها من هذا المجلد تُعدُّ مساهمات أولية لما يجب أنْ يكون مشروعًا طويلًا ومستمرًا.

بينَ بينْ: تنظيم هذا المجلد

بعد التحقيق الذي أجريناه في الأجزاء السابقة من المقال في الحدود الزمنية لهذا المُجلَّد، يتبقى لنا مناقشة بعض الملامح البارزة للحقبة نفسها التي تحكم طريقة اختيار التنظيم والمحتوى. وكما سبق لنا الإشارة إلى أنّ الدراسات السابقة تميل في إنتاجها الأدبي إلى اتّباع المبادئ الخاضعة للأسر الحاكمة في تقسيم الحِقْبة، مثل استعمال الفتوحات العثمانية في القرن السادس عشر وآثارها الثقافية بوصفها حقبة تاريخية مهمة.

وفي ضوء التغييرات التي أحدثتها الهيمنة العثمانية على جزء كبير من العالم الناطق بالعربية —ليس أقلها أنَّ اللغة التركية أصبحت اللغة المفضلة للاتصال الإداري–، فإنَّ هذا التقسيم ما هو إلا انعكاس لعمليات التغيير التي كان لها تأثيرٌ عميقٌ في المجالات السياسية والاجتماعية، بل تعدت إلى التأثير في سياقات الإنتاج الأدبي وأساليبه، ولأغراض إعداد هذا

1 ستثبت دراسة الشعر في القرن التاسع عشر في العراق أنّ الشّعر حقل مجزٍ لاكتشاف أسباب قوة وسيادة الشعر العراقي في منتصف القرن العشرين، لكن قليل من المؤرخين الذين حاولوا تقييمًا حقيقيًا لشعر القرن التاسع عشر في العراق، الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، المجلد الأول، ص26.

2 لا تسمح المساحة بإجراء مناقشة حول هذه الدراسات هنا، ولكن هناك ملخص مفيد والمشكلات التي تعالجها في كتاب الاتجاهات والقضايا لعيسى بُلاطة، الفصل الثاني، وكتاب أزمة المثقفين العرب لعبد الله العروي.

المجلد اعتمدنا مبدأً منظمًا وليس تقسيمًا فرعيًا تاريخيًا من هذا النوع، وهو مبدأ يعتمد على معايير أكثر ارتباطًا بتحليل عوالم المؤلف والجمهور –المتلقي– التي تميز بين أدب النخبة والأدب الشعبي.

ولقد كانت تلك الحِقْبة الطويلة هي الحِقْبة التي وصل فيه فن التجميع والنظرية إلى الذروة، بالإضافة إلى الأنواع الشعبية كانت ضمن هذه الأنشطة الأدبية، ونجد منها أشهر الروايات العالمية "ألف ليلة وليلة" هي الأكثر ذيوعًا وشُهرةً بين مجموعة كاملة من الروايات الخيالية وغيرها من الأنواع[1]. علاوة على ذلك، إذا أدرجنا في سياقنا المنطقي النسبية بين الأبحاث التي خصصت لأدب النخبة والأدب الشعبي في هذه الحِقْبة سنجد أنّ الروابط المثمرة التي أُسِسَتْ في الآونة الأخيرة بين الدراسات الأدبية والتخصصات العلمية الاجتماعية من الفلكلور والانثروبولوجيا واللغويات؛ قد ولَّدت مجموعة كبيرة من الدراسات في الأدب الشعبي العربي.

ومن ثَمَّ، فإنّ التقسيم الأساسي الذي اخترناه يحاول أنْ يعكس توافر المصادر الأصلية والدراسات التي أُنجزت حولها، كما استهلَّ جون كيري[2] John Carey دراسته المعروفة عن المثقفين والأدبيين الإنجليزيين "المثقفين والجماهير" بالتركيز على مفهوم (الفوضى/العبث) وهو انتقاء نقدي متعمد جدًا يعبر عن ثنائية أدب النخبة والأدب الشعبي مع استثناء الغرض المعلن من الكتاب[3]. أمّا في السياق العربي فقد كانت أنماط التمييز والاستبعاد قائمة في أشكالها المختلفة مثل: محو الأمية، والتعليم، والطبقة الاجتماعية وهي أنماطٌ انعكست بدورها على الموقف اتجاه اللغة العربية؛ إذ اسْتُعْمِلَ مفهوما (الشعبية) و(الفوضى/العبث) بشكل مضمن داخل المصطلح نفسه، وهما عادة ما يُستعملان لوصف مستويات الاستخدام المختلفة.

إنّ أول لغة لكل متحدث باللغة العربية هي اللهجة الشائعة التي يشار إليها بـ(العامية)، في حين أنّ اللغة القياسية المكتوبة – وهي وسيلة التعبير الأدبي التي تتخذ من خطاب القرآن الكريم معيارًا لها – هي (الفصحى)، وهذا المصطلح يتجاوز كونه قياسًا تقنيًّا إلى حكم قيمي يشير إلى نوع اللغة الأكثر حداثة وبلاغة – والنمط المورفولوجي للكلمة هو (الأفضلية)–. ورجوعًا إلى السياق العربي، فإنّ النخبة والشعبية لا تأخذ، بالحسبان التأثيراتِ المختلفةَ للكتابة والشفهية في طرق التكوين والاستقبال بين المبدع والجمهور –المتلقي– مع الأخذ في الاعتبار الفروقات في مستويات التعليم، والقيم المعنوية واللغوية المعيارية التي وُضِعت من قِبَل المثقفين المتعلمين في إطار العلوم الإسلامية وتطوير النظام التربوي الذي أدى بدوره إلى تطويرها.

1 يمكن الاطلاع على هذا الاستقصاء من خلال أعمال إروين في الليالي العربية.

2 جون كيري، وهو ناقد أدبي إنجليزي، يشغل منصب أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة أوكسفورد. له العديد من الأعمال أبرزها: المثقفين والجماهير 1880-1939 "The Intellectuals and the Masses: Pride and Prejudice Among the Literary Intelligentsia"، فابر وفابر، المملكة المتحدة، 1992م.

3 جون كيري، تمهيد، المثقفين والجماهير. وللمزيد من التعليقات في السياق العربي انظر: هيث، السيف المتعطش، ص45-51.

وفي هذا السياق الفكري الذي يُعبَّر عنه بـ(الأدب الجميل/المحض) – وهي ترجمة تحاول التقاط اثنتين من الدلالات العديدة لكلمة الأدب العربية، التي ناقشها بونبياكير[1] Bonebakker بالتفصيل– كانت مشاركة مركزية في الحياة الفكرية في بلاط الحاكم المسلم، واتبع المجتمع العربي إلى حد كبير التقييد الصارم للقواعد واستبعدت أشكال الإبداع التي لا تتوافق مع القواعد النحوية للفُصحى. إلا أننا نجد عند بعض المؤلفين في فترات مختلفة ظهور عدد من المجموعات الأدبية الصغيرة التي يمكن وصفها بمستويات وسطية، وبعد أنْ وصلت إلينا مجموعةٌ من الأعمال التي لا تقدر بثمن بمستوى أقلّ من الكلمة؛ والحقيقة فإنّ وجود مثل هذه الأعمال يجعل الباحث أكثر حذرًا من النظر في مفاهيم النخبة والشعبية وعدَّها كُتلًا أحادية ثابتة (هيث، ص 46). وعلى الرغم من هذه اللمحات العرضية التي تدلّ على تداعياتها المحتملة، فإنّ قيم المثقفين فيما يتعلق بالاستعمال اللغوي الملائم استمرت في التأثير ومازالت مستمرة إلى حد كبير.

وفي الحِقْبة التي يُغطِّيها هذا المجلد، توصلنا إلى نماذج كثيرة تمثل عينة من الإنتاج الأدبي النخبوي، والذي يتمحور في معظمه حول البلاط. وبعيدًا عن هذه الحدود توصلنا إلى سلسلة من أعمال الإبداع الشعبي التي تمثل نماذج قليلة نسبيًّا مقارنة بالنماذج الأخرى. وهنا نضع اقتباسًا من مقدمة كتبها طبيب العيون المصري ابن دانيال[2] (1310م) في مجموعته التي لا تقدر بثمن المكونة من ثلاث مسرحيات أمرًا مفيدًا، فيقول: إنّه كتب بعض المسرحيات الجديدة لأنه لاحظ أنّ الجمهور يشعرُ بالضجر من العروض المسرحية التي كانت معروفة في ذلك الوقت[3]. وعلى ما يبدو فإنَّ هذا التعليق يشير إلى سياق كامل من الإبداع الذي نمتلكه – على الأقل حتى الآن– وما وصلنا منه قليل جدًا، ولا شك في أن هذه الأعمال ماهي إلّا انعكاس لوسائل الترفيه الشعبية التي نُقِلت شفويًا من جيل إلى جيل.

وقد نقول الشيء نفسه عن الفرصة التي حظي بها أنطوان غالان[4] Antoine Galland عند اكتشافهِ مخطوطةَ مجموعةٍ من القصص العربية التي يرجع أصلها إلى أصل هندي–فارسي "ألف ليلة وليلة" وترجمها أنطوان غالان إلى الفرنسية بداية من عام (1704م)، وفي وقت لاحق سُلِمت إلى المكتبة الوطنية في باريس. وفي مفارقة كبيرة فإن هذا العمل في تقليد الرواية الشرق أوسطية كانت قد نبذته النخبة المثقفة إلى حد كبير، إلا أن دخولها إلى أوروبا أدخلها في عاصفة، وأصبحت صورتها الغربية موضوعًا للمضاهاة وكان لموضوعاتها وأساليبها السردية تأثيرٌ عميقٌ في الفن الأوروبي قيمه الجمالية.

1 أنديريانوس بونبياكير (1895م-1975م)، باحث في تطور الأدب العربي الكلاسيكي. شغل منصب أستاذ لغات وثقافات الشرق الأدنى في جامعة كولومبيا ثم في جامعة كاليفورنيا. له العديد من الأعمال منها: دراسة في كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر وغيرها.

2 هو شمس الدين بن دانيال الخزاعي الموصلي، ولد بالموصل عام 646 هجرياً، ثم انتقل إلى مصر عام 665 هجريًا فى عهد الظاهر بيبرس. اشتغل بطب العيون، وكان يملك دكانًا فى باب الفتوح يكحل فيه عيون الناس.

3 كان ابن دانيال يجمع بين مهنتي الكحالة والمخايلة، فقد ألف الكثير من التمثيليات، وتمثيليات خيال الظل كانت تعرف في العصر المملوكي باسم بابات ومفردها بابة.

4 أنطوان غالان (1646م – 1715 م)، وهو مستشرق فرنسي، اشتهر بترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة.

وفي حين كانت أعمال النخبة المثقفة يتم تُسجل وتدوّن داخل محيطها الأدبي بالالتزام بالمعايير الجمالية الخاصة بها، إلا أنّ الدراسات الأدبية العربية أثبتت بوضوح أنّ ذلك لم يتوافق مع التوقعات النقدية الغربية، ولقد كانت ترجمة أنطوان غالاند الفرنسية لألف ليلة وليلة هي بداية اهتمام غربي مستمر بالروايات الشعبية العربية، وما الجزء المخصص لها وتطوير أساليب تحليلها من هذا المجلد إلا انعكاس لهذا الاتجاه. ومن ثَمَّ فإن التقسيم الفرعي للناتج الأدبي لهذه الحِقْبة يدعونا إلى التفكير في طرق بديلة لتطبيق المعايير الجمالية.

وفي مثل هذا السياق لا يمكننا أنْ نفعل ما هو أفضل من إيراد آراء عبد الفتاح كيليطو الذي يحدد القضايا بوضوح معتاد: "يبدو لنا أكثر ملائمة أن ننظر إلى الشعرية العربية في ذاتها ونتجنب النظر إليها بوصفها انحرافًا عن نموذج تحقق في أزمنة أخرى، وتحت سماء أخرى. وينبغي استنباط المبدأ الذي يحكمها من خصائصها الذاتية لا من خصائص فاعلة في شعرية أخرى. إنّ هدف المقارنة لا يمكن أنْ يكون خصبًا إلا إذا تلافينا أنْ نجعل من الموضوع المقارن به مُطلقًا. وصحيح أنه يمكن للمقاربة السلبية أنْ تكون مثمرة شريطة أنْ تستخلص خلال دراستها لما لم تنجزه ثقافة ما، ما أنجزته لا ما كان عليها إنجازه. وفي غياب هذا التحوّط يظل المتخاطبون سجناء مُسلَّمة طاغية لا يستطيع التسامح المتعالي ولا النفي المتصلب أنْ يتجاوزها" (كيليطو، ص 136).

وهكذا نخلص في تقريب هذا الفصل التمهيدي إلى الخاتمة، إلّا أنه من الجيد أنْ نؤكد بشكل واضح ما الذي يحاول هذا المجلد من سلسلة "تاريخ كامبريدج للأدب العربي" القيام به، وبلا شك فإنّ هذا المجلد يمثل واحدة من المحاولات الأولى في اللغة الإنجليزية –الأوروبية– لمعالجة هذه الحِقْبة الواسعة والممتدة بين حوالي 1150م و1850م ككيانٍ منفصل بل في الواقع ككيان جدير بالدراسة في سياق أدبي حرج! وعلى هذا النحو، لا يمكننا أنْ ننتقص من التباين في تطلعات المجلدات السابقة في السلسلة، فعلى الرغم من اختلافاتها التنظيمية سعت جميعها إلى تقديم ملخص شامل قَدْر الإمكان للجزء ذي الصلة بالتراث الأدبي العربي.

في حين بُذلت كلُّ الجهد في التخطيط لهذا المجلد لتوفير تغطية شاملة قدر الإمكان لسبعة قرون من الإنتاج الأدبي، إلّا أنَّ التغطية الشاملة لم تكن ممكنة في عدة حالات –النوع، المناطق، الفترات الفرعية– إما لأن المواد ذات الصلة كانت غير معروفة أو غير متوفرة للباحثين، أو لأن المحررين لم يتمكنوا من العثور على خبراء قادرين على الكتابة عن الموضوعات أو على الأقل راغبين في ذلك. عدا عن أننا عندما نلاحظ أنّ العدد القليل من الدراسات التي اهتمت بالناتج الأدبي لهذه الحِقْبة، نجد أنّ اهتمامًا كبيرًا صاحب الأعمال التي كتبت في حقبة سابقة – ما بعد الكلاسيكية – على الأعمال التي كتبت في وقت لاحق – ما بعد القرن السادس عشر، ما قبل الحداثة–، وهذا ما انعكس بوضوح على غالبية مساهمات هذا المجلد.

لذا يجب أنْ يُنظر في المقام الأول إلى تجميع الدراسات على أنه مقدمة للدراسة الأدبية لهذه الحِقبة المهملة أكثر من كونه محاولة لتجميع أيِّ نوع من الملخصات الشاملة لها مما يوفر الكثير من التفاصيل، وجعل المصادر المنشورة والاهتمام العلمي بها ممكنًا، ومع وضع هذه الفكرة في الحُسبان قد يكون من المفيد لفت الانتباه إلى مبدأين طُبِّقا في إعداد هذه الدراسات الفردية للنشر في هذا المجلد، أولها: أنّ المجلد يحتوي على قدر معين من التكرار يمكن أن يلاحظ في المساهمات الفردية وعلى الأخص بين مقالات الاستطلاع الأولي لكل قسم فرعي والدراسات عن الأنواع التي تتبعها، ليس هذا فحسب بل –كما تظهر هذه الحقبة– فإنّ مثل هذه الإشارات المتكررة للمؤلفين في الأقسام المختلفة تعمل على توضيح الروابط بين أدب النخبة والتقاليد الأدبية الشعبية.

كما ساهم كلُّ المشاركين في دراسة المؤلفين والمحتوى في سياقات مختلفة ومن وجهات نظر مغايرة، ويهدف هذا التكرار المضمن إلى أن يكون أمثلةً للسياقات الثقافية المتنوعة والمناهج النقدية المختلفة. أما المبدأ الآخر الذي يسعى هذا المجلد إلى تحقيقه وهو النتيجة المنتظرة من هذه المساهمات المكرسة لدراسة هذه الحِقْبة الطويلة والمهملة؛ أنْ يكشف هذا المجلد عن أحكام مختلفة فيما يتعلق بجماليات تلك الحِقْبة ومقوماتها الأساسية. وعلى سبيل المثال يرى محمد اليوسفي في الفصل الثاني أنّ المشكلات التي تبرز في حقبة ما بعد الكلاسيكية من الشعر العربي؛ ترجع أصولها إلى حقبة سابقة، أمّا بالنسبة إلى سلمى الجيوسي في الفصل الأول فإن هذه الحِقْبة هي حقبة تراجع في الإبداع الشعري العربي.

وفي عالم الأدب النثري لا تظهر الصورة التي رسمها محسن الموسوي، في الفصل الخامس، والمساهمون الآخرون في نفس الموضوع سوى بعض الازدهار في الكتابة وتحليلها. وهذا التباين في تقييم كل من الإبداع والتلقي واضح بشكل متساوٍ في الأجزاء المتعلقة بالشعر والنثر الشعبيين، وهو ما نجده في دراسات مارغريت لاركن[1] Margaret Larkin في الفصل العاشر دوايت رينولدز[2] Dwight Reynolds في الفصل 11، 12،13 وزملائهم، ولا حاجة لقول: إنَّ هذا الاختلاف في الآراء فيما يتعلق بالفترات والأدب التاريخي–الأدبي ما هي إلا جزء من أجندة البحث الأكبر في المستقبل التي تتضمن تحديدًا للمعايير ذات الصلة ومقاربة أكثر تمييزًا وفاعلية وأقل ديناميكية لتحليل الإنتاج الإبداعي لحقبة ما بعد الكلاسيكية، وهو الهدف الذي يتطلع إليه المجلد ليقدم حسًّا جديدًا بالاتجاه وبعض النماذج التوضيحية.

1 مارغريت لاركن، بروفيسورة متخصصة في دراسة الأدب العربي، تشغل منصب أستاذ في قسم دراسات الشرق الأدنى في جامعة كاليفورنيا بيركلي. لها إسهامات في الأدب الكلاسيكي والأدب الحديث منها: دراسة في نظرية المعنى لعبد القاهر الجرجاني، ودراسة في شعر المتنبي وغيرها.

2 دوايت رينولدز، بروفيسور في اللغة العربية وآدابها. يشغل منصب أستاذ في قسم الدراسات الدينية في جامعة كاليفورنيا في سانتا بربارا. له العديد من الأعمال منها: دراسة في الفلكلور العربي، ودراسة في السيرة الذاتية في التراث الأدبي العربي.

4. المراجع:

آدمز. النظرية النقدية منذ أفلاطون.

أمين، أحمد. (1948). زعماء الإصلاح في العصر الحديث. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

الخالدي. (1992) فكرة التاريخ عند العرب. دار النهار للنشر، بيروت.

فراي1. تشريح النقد.

فراي2. المدونة الكبرى الكتاب المقدس والأدب.

كروس، بينيديتو. (1902). جوهر الأدب.

كريمر. الإنسانية في نهضة الإسلام.

كونو. (1992). فلاحو الباشا: الأرض المجتمع والاقتصاد "The Pasha's Peasants: Land, Society, and Economy".

كيليطو، عبد الفتاح. المقامات السرد والأنساق الثقافية.

ليدر وكيلباتريك. (مارس/آذار 1992). "النثر العربي الكلاسيكي". مجلة الأدب العربي، مجلد 23، العدد 1، برل، هولندا.

مقدسي، جورج. الإنسانية والثقافة واللغة. نشأة كليات ومعاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب، نشوء النزعة الإنسانية.

ميتز. نهضة الإسلام.

هودجسون، مارشال. (1993). تصور تاريخ العالم "Rethinking World History". مطبعة جامعة كامبريدج.

هوميرن، توماس. (1997). تأملات في الشعر العربي في العصر المملوكي "Reflection on Arabic Poetry in Mamluk Age"، مركز توثيق الشرق الأوسط.

هيث. السيف المتعطش.

وايت، جيمس. (1962). القرن الثامن عشر المسيحي. نيويورك.

Gran, P. (1979). Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760-1840. Texas University Press